﴿ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ(١) وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤) ﴾

استهل الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ .. (٤٤) ﴾ [النحل]

ويقول أهل اللغة : إن الجار والمجرور لا بُدّ له من متعلق .. فبماذا يتعلق الجار والمجرور هنا ؟ قالوا : يجوز أنْ يتعلّق بالفعل (نُوحِي) ويكون السياق : وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نُوحِي إليهم بالبينات والزبر .

وقد يتعلق الجار والمجرور بأهل الذكر .. فيكون المعنى : فاسألوا أهل الذكر بالبينات والزبر ، فهذان وجهان لعودة الجار والمجرور .

والبينات : هي الأمر البيِّن الواضح الذي لا يشكُّ فيه أحد .. وهو إما أن يكون أمارة ثُبوت صدْق الرسالة كالمعجزة التي تتحدى المكذِّبين أنْ يأتوا بمثلها .. أو : هي الآيات الكونية التي تلفتُ الخَلْق إلى وجود الخالق سبحانه وتعالى ، مثل آيات الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم .

---

(١) الزُّبُر : الكتب . والزَّبْر : الكتابة . وقد غلب الزبور على صحف داود عليه السلام . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ .. (١٠٥) ﴾ [الأنبياء] قال أبو هريرة : الزبور ما أنزل على داود من بعد التوراة .

أما الزُّبُر ، فمعناها : الكتب المكتوبة .. ولا يُكتب عادة إلا الشيء النفيس مخافة أنْ يضيعَ ، وليس هنا أنفَسُ مما يأتينا من منهج الله ليُنظِّم لَنا حركة حياتنا .

ونعرف أن العرب ـ قديماً ـ كانوا يسألون عن كُلِّ شيء مهما كان حقيراً ، فكان عندهم علمٌ بالسهم ومَنْ أول صانع لها ، وعن القوس والرَّحْل ، ومثل هذه الأشياء البسيطة .. ألاَ يسألون عن آيات الله في الكون وما فيها من أسرار وعجائب في خَلْقها تدلُّ على الخالق سبحانه وتعالى ؟

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ .. (٤٤) ﴾ [النحل]

كلمة الذكر وردتْ كثيراً في القرآن الكريم بمعانٍ متعددة ، وأصْلُ الذكر أنْ يظلَّ الشيءُ على البال بحيث لا يغيب ، وبذلك يكون ضدّه النسيان .. إذن : عندنا ذِكْر ونسيان .. فكلمة « ذكر » هنا معناها وجود شيء لا ينبغي لنا نسيانه .. فما هو ؟

الحق سبحانه وتعالى حينما خلق آدم ـ عليه السلام ـ أخذ العهد على كُلِّ ذرَّة فيه ، فقال تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

وأخْذ العهد على آدم هو عهْد على جميع ذريته ، ذلك لأن فى كُلِّ واحد من بنى آدم ذَرَّة من أبيه آدم .. وجزءاً حياً منه نتيجة التوالُد والتناسُل منْ لَدُن آدم حتى قيام الساعة ، وما دُمْنا كذلك فقد شهدنا أخذ العهد : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ .

وكأن كلمة (ذكر) جاءت لِتُذكِّرنا بالعهد المطمور فى تكويننا ، والذى ما كان لنا أنْ ننساه ، فلما حدث النسيان اقتضى الأمرُ إرسالَ الرسل وإنزالَ الكتب لِتذكِّرنا بعهد الله لنا :

﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

ومن هنا سَمَّينا الكتب المنزلة ذكراً ، لكن الذكْر يأتى تدريجياً وعلى مراحل .. كلُّ رسول يأتى لِيُذكِّر قومه على حَسْب ما لديهم من غفلة .. أما الرسول الخاتم ﷺ الذى جاء للناس كافّة إلى قيام الساعة ، فقد جاء بالذكر الحقيقى الذى لا ذِكْر بعده ، وهو القرآن الكريم .

وقد تأتى كلمة (الذكْر) بمعنى الشَّرَف والرِّفْعة كما فى قوله تعالى للعرب :

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ .. (١٠) ﴾ [الأنبياء]

وقد أصبح للعرب مكانة بالقرآن ، وعاشت لغتهم بالقرآن ، وتبوءوا مكان الصدارة بين الأمم بالقرآن .

وقد يأتى الذكْر من الله للعبد ، وقد يأتى من العبد لله تعالى كما فى قوله سبحانه :

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ .. (١٥٢) ﴾ [البقرة]

والمعنى : فاذكرونى بالطاعة والإيمان أذكركم بالفيوضات والبركة والخير والإمداد وبثوابى .

وإذا أُطلقت كلمة الذكر انصرفت إلى ما نزل على رسول الله ﷺ ؛ لأنه الكتاب الجامع لكُلِّ ما نزل على الرسُل السابقين ، ولكل ما تحتاج إليه البشرية إلى أنْ تقومَ الساعة .

كما أن كلمة كتاب تطلق على أى كتاب ، لكنها إذا جاءت بالتعريف (الكتاب) انصرفت إلى القرآن الكريم ، وهذا ما نسميه (علَم بالغلبة) .

والذكْر هو القرآن الذى نزل على محمد ﷺ ، وهو معجزته الخالدة فى الوقت نفسه ، فهو منهج ومعجزة ، وقد جاء الرسُل السابقون بمعجزات لحالها ، وكتب لحالها ، فالكتاب منفصل عن المعجزة .

فموسى كتابه التوراة ومعجزته العصا ، وعيسى كتابه ومنهجه الإنجيل ومعجزته إبراء الأكمه والأبرص[1] وإحياء الموتى بإذن الله .

أما محمد ﷺ فمعجزته هى نفس كتاب منهجه ، لا ينفصل أحدهما عن الآخر لتظلّ المعجزة مُسَاندة للمنهج إلى قيام الساعة .

وهذا هو السِّر فى أن الحق تبارك وتعالى تكفل بحفظ القرآن وحمايته ، فقال تعالى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩ ﴾ [الحجر]

أما الكتب السابقة فقد عُهد إلى التابعين لكل رسول منهم بحِفْظ كتابه ، كما قال تعالى :

---

(١) الأكمه : المولود أعمى . وقد يكون حادثاً بعد بصر . والأبرص : من أصابه مرض البرص ، وهو مرض جلدى يُحدث بُقعاً بيضاء فى الجلد تشوهه . [القاموس القويم مادتا : كمه ، برص] .

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ .. (٤٤)﴾

[المائدة]

ومعنى استُحفظوا : أى طلبَ الله منهم أنْ يحفظوا التوراة ، وهذا أَمْرُ تكليف قد يُطاع وقد يُعصى ، والذى حدث أن اليهود عَصَوْا وبدّلوا وحَرَّفوا فى التوراة .. أما القرآن فقد تعهَّد الله تعالى بحفْظه ولم يترك هذا لأحد ؛ لأنه الكتاب الخاتَم الذى سيصاحب البشرية إلى قيام الساعة .

ومن الذِّكْر أيضاً ما جاء به الرسول ﷺ مع القرآن ، وهو الحديث الشريف ، فللرسول مُهمة أخرى ، وهى منهجه الكلاميّ وحديثه الشريف الذى جاء من مشْكاة القرآن مبيّناً له ومُوضّحاً له .. كما قال ﷺ :

« ألاَ وإنّى قد أُوتيتُ القرآن ومِثْله معه ، يُوشك رجل شبعان يتكىء على أريكته يُحدِّث بالحديث عنّى فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه من حلال حلّلْناه ، وما وجدنا فيه من حرام حَرَّمناه ، ألاَ وإنّه ليس كذلك »[1] .

ويقول الحق سبحانه :

﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ .. (٤٤)﴾ [النحل]

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١٣١/٤) ، وأبو داود فى سننه (٤٥٩١) ، وابن حبان (٩٧ ـ موارد الظمآن) من حديث المقدام بن معديكرب .

إذن : جاء القرآن كتابَ معجزة ، وجاء كتابَ منهج ، إلا أنه ذكر أصول هذا المنهج فقط ، ولم يذكر التعريفات المنهجية والشروح اللازمة لتوضيح هذا المنهج ، وإلاّ لَطالتْ المسألة ، وتضخَّم القرآن وربما بَعُد عن مُرَاده .

فجاء القرآن بالأصول الثابتة ، وترك للرسول ﷺ مهمة أنْ يُبيِّنه للناس ، ويشرحه ويُوضِّح ما فيه .

وقد يظن البعض أن كُلَّ ما جاءتْ به السُّنة لا يلزمنا القيام به ؛ لأنه سنة يُثاب مَنْ فعلها ولا يُعاقب مَنْ تركها .. نقول : لا .. لابُدَّ أن نُفرِّق هنا بين سُنِّية الدليل وسُنِّية الحكم ، حتى لا يلتبس الأمر على الناس .

فسُنِّية الدليل تعنى وجود فَرْض ، إلا أن دليله ثابت من السنة .. وذلك كبيان عدد ركعات الفرائض : الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء ، فهذه ثابتة بالسنة وهى فَرْض .

أما سُنِّية الحكم : فهى أمور وأحكام فقهية وردت عن رسول الله ﷺ ، يُثاب فاعلها ولا يُعاقب تاركها .. فحين يُبيِّن لنا الرسول بسلوكه وأسْوته حُكْماً ننظر : هل هى سُنِّية الدليل فيكون فَرْضاً ، أم سُنِّية الحكم فيكون سُنة ؟ ويظهر لنا هذا أيضاً من مواظبة الرسول على هذا الأمر ، فإنْ واظب عليه والتزمه فهو فَرْض ، وإنْ لم يواظب عليه فهو سُنة .

إذن : مهمة الرسول ليست مجرد مُنَاولة القرآن وإبلاغه للناس ، بل وبيان ما جاء فيه من المنهج الإلهى ، فلا يستقيم هنا البلاغ دون

بيـان .. ولابُدَّ أن نفـرِّق بيـن العطائين : الـعطاء القـرآنـى ، والعطاء النبوى .

ويجب أن نعلم هنا أن من الـمَيْزات التى مُيِّـز بهـا النبى ﷺ عن سـائر إخـوانه من الرُّسُل ، أنه الـرسـول الوحـيـد الذى أمنه الله على التشريع ، فقد كان الرسل السابقون يُبلِّغون أوامر السماء فقط وانتهتْ المسألة ، أما محمد ﷺ فقد قال الحق تبارك وتعالى فى حقِّه :

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. ⑦ ﴾ [الحشر]

إذن : أخذ مَيْـزة التشريع ، فأصـبحت سُنَّته هى التشـريع الثانى بعد القرآن الكريم .

ثم يقول تعالى :

﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ④④ ﴾ [النحل]

يتـفكرون .. فى أى شىء ؟ يتفكرون فى حـال الرسول ﷺ قـبل البعثة ، حيث لم يُؤْثَر عنه أنه كـان خطيباً أو أديباً شاعراً ، ولم يُؤْثَر عنه أنه كان كاتبـاً مُتعلّماً .. لم يُعرف عنه هذا أبداً طيلة أربعـين عاماً من عمره الشريف ، لذلك أمرهم بالتفكُّر والتدبُّر فى هذا الأمر .

فليس مـا جاء به مـحمـد عبقـرية تفجَّـرت هكذا مرَّة واحـدة فى الأربعين من عمره ، فالعمر الطبيـعى للعبقريات يأتى فى أواخر العقْد الثانى وأوائل العقْد الثالث من العمر .

ولا يُعـقل أنْ تُؤجَّل العبـقرية عند رسـول الله إلى هذا السن وهو يرى القـوم يُصْرعون حـوله .. فيموت أبوه وهو فى بطـن أمه ، ثم

تموت أمه وما يزال طفلاً صغيراً ، ثم يموت جَدُّه ، فَمَنْ يضمن له الحياة إلى سنّ الأربعين ، حيث تتفجّر عنده هذه العبقرية ؟!

إذن : تفكّروا ، فليستْ هذه عبقرية من محمد ، بل هى أمْر من السماء ؛ ولذلك أمره ربُّه تبارك وتعالى أن يقول لهم :

﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦) ﴾ [يونس]

فكان عليكم أنْ تفكّروا فى هذه المسألة .. ولو فكرتُمْ فيها كان يجب عليكم أنْ تتهافتوا على الإسلام ، فأنتم أعلم الناس بمحمد ، وما جرَّبتم عليه لا كذباً ولا خيانةً ، ولا اشتغالاً بالشعر أو الخطابة ، فما كان لِيْصدق عندكم ويكذب على الله .

ولا بُدَّ أن نُفرِّق بين العقل والفكر . فالعقل هو الأداة التى تستقبل المحسَّات وتُميِّزها ، وتخرج منها القضايا العامة التى ستكون هى المبادىء التى يعيش الإنسان عليها ، والتى ستكون عبارة عن معلومات مُخْتَزنة ، أما الفكر فهو أن تفكر فى هذه الأشياء لكى تستنبط منها الحكم .

والله سبحانه وتعالى ترك لنا حُرية التفكير وحرية العقل فى أمور دنيانا ، لكنه ضبطنا بأمور قَسْرية يفسَدَ العالم بدونها ، فالذى يفسد العالم أن نترك ما شرعه الله لنا .. والباقى الذى لا يترتب عليه ضرر يترك لنا فيه مجالاً للتفكير والتجربة ؛ لأن الفشل فيه لا يضر .

فما أراده الله حُكْماً قسْرياً فرضه بنصٍّ صريح لا خلافَ فيه ، وما أراده على وجوه متعددة يتركه للاجتهاد حيث يحتمل الفعل فيه

أوجهاً متعددة ، ولا يؤدى الخطأ فيه إلى فساد .

فالمسألة ميزان فكرى يتحكم فى المحسَّات ويُنظم القضايا ، لنرى أولاً ما يريده الله بتًّا وما يريده اجتهاداً ، وما دام اجتهاداً فما وصل إليه المجتهد يصح أنْ يعبد الله به ، ولكن آفة الناس فى الأمور الاجتهادية أن منهم مَنْ يتهم مخالفه ، وقد تصل الحال بهؤلاء إلى رَمْى مخالفيهم بالكفر والعياذ بالله .

ونقول لمثل هذا : اتق الله ، فهذا اجتهادٌ مَنْ أصاب فيه فَلَهُ أجران ، ومَنْ أخطأ فله أجر[1] .. ولذلك نجد من العلماء مَنْ يعرف طبيعة الأمور الاجتهادية فنراه يقول : رأيى صواب يحتمل الخطأ ، ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب . وهكذا يتعايش الجميع وتُحترَم الآراء .

ومن رحمة الله بعباده أن يأمرهم بالتفكُّر والتدبُّر والنظر ؛ ذلك لأنهم خَلْقه سبحانه ، وهم أكرم عليه من أنْ يتركهم للضلال والكفر ، بعد أن أكرمهم بالخَلْق والعقل ، فأراد سبحانه أن يكرمهم إكراماً آخر بالطاعة والإيمان .

وكأنه سبحانه يقول لهم : رُدُّوا عقولكم ونفوسكم عن كبرياء الجدل ولَجَج الخصومة ، وإنْ كنتم لا تؤمنون بالبعث فى الآخرة ، وبما أُعدَّ للظالمين فيها من عقاب ، فانظروا إلى ما حدث لهم وما عُجِّل لهم من عذاب فى الدنيا .

---

(١) عن عمرو بن العاص رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ قال : « إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر » أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧١٦) ، والبخارى فى صحيحه (٧٣٥٢) .

انظروا للذين سبقوكم من الأمم المكذّبة وما آلَ إليه مصيرهم ، أم أنتم آمنون من العذاب ، بعيدون عنه ؟!

ثم يقول تبارك وتعالى :

﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

قوله تعالى :

﴿ أَفَأَمِنَ .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [النحل]

عبارة عن همزة الاستفهام التى تستفهم عن مضمون الجملة بعدها .. أما الفاء بعدها فهى حَرْف عَطْف يعطف جملة على جملة .. إذنْ : هنا جملة قبل الفاء تقديرها : أجهلوا ما وقع لمخالفى الأنبياء السابقين من العذاب ، فأمِنُوا مكر الله ؟

أى : أن أَمْنهم لمكر الله ناشىءٌ عن جهلهم بما وقع للمكذِّبين من الأمم السابقة .

ثم يقول تعالى :

﴿ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [النحل]

المكر : هو التبييت الخفىّ للنيْل ممَّنْ لا تستطيع مجابهته بالحق ومجاهرته به ، فأنت لا تُبيِّت لأحد إلا إذا كانت قدرتُك عاجزة عن مُصَارحته مباشرة ، فكونُك تُبيِّت له وتمكر به دليل على عَجْزك ؛ ولذلك جعلوا المكر أول مراتب الجُبْن ؛ لأن الماكر ما مكر إلا لعجزه

عن المواجهة ، وعلى قَدْر ما يكون المكْر عظيماً يكون الضعف كذلك .

وهذا ما نلحظه من قوله تعالى فى حَقّ النساء :

﴿إنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [يوسف]

وقال فى حَقّ الشيطان :

﴿إنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء]

فالمكر دليل على الضعف ، وما دام كَيْـدهُن عظيماً إذن : ضَعْفُهن أيضاً عظيم ، وكذلك فى كيد الشيطان .

وقديماً قالوا : إياك أنْ يـملكَك الضعيف ؛ ذلك لأنه إذا تمكّن منك وواتَتْه الفـرصة فلن يدعَكَ تُفلت منه ؛ لأنه يعلم ضعفـه ، ولا يضمن أن تُتاحَ له الفرصة مرة أخرى ؛ لذلك لا يـضيعها على عكس القوىّ ، فهو لا يحرص على الانتقام إذا أُتيحَتْ لـه الفرصة وربما فَوّتها لقُوته وقُـدرته على خَـصْـمـه ، وتمكّنه منه فى أىّ وقـت يريد ، وفى نفس المعنى جاء قول الشاعر :

وَضَعيفةٍ فإذَا أصَابتْ فُرْصةً ... قتلَتْ كذلكَ قُدرةُ الضُّعَفاءِ

إذن : قدرة الضعفاء قد تقتل ، أما قدرة القوىّ فليستْ كذلك .

ثم لنا وقْفة أخرى مع المكْر ، من حيث إن المكر قد ينصرك على مُساويك وعلى مثلك من بنى الإنسان ، فإذا ما تعرضْتَ لمن هو أقوى منك وأكثر منك حَيْطة ، وأحكم منك مكْراً ، فربما لا يُجدى مكرُك به ، بل ربما غلبك هو بمكْره واحـتياطه ، فكيف الحال إذا كـان الماكر بك هو ربّ العالمين تبارك وتعالى ؟

وصدق الله العظيم حيث قال :

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) ﴾ [الأنفال]

وقال :

﴿ وَلا يَحِيقُ[١] الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ .. (٤٣) ﴾ [فاطر]

فمكْر العباد مكشوف عند الله ، أما مكْرُه سبحانه فلا يقدر عليه أحد ، ولا يحتاط منه أحد ؛ لذلك كان الحق سبحانه خَيْر الماكرين .

والمكْر السَّيء هو المكْر البطَّال الذى لا يكون إلا فى الشر ، كما حدث من مكْر المكذِّبين للرسل على مَرِّ العصور ، وهو أن تكيد للغير كيْداً يُبطل حَقّاً .

وكل رسول قابله قومه المنكرون له بالمكْر والخديعة ، دليل على أنهم لا يستطيعون مواجهته مباشرة ، وقد تعرَّض الرسول ﷺ لمراحل متعددة من الكَيْد والمكْر والخديعة ، وذلك لحكمة أرادها الحق تبارك وتعالى وهى أن يُوئس الكفار من الانتصار عليه ﷺ ، فقد بيَّتوا له ودَبَّروا لقتله ، وحاكُوا فى سبيل ذلك الخطط ، وقد باءتْ خُطتهم ليلة الهجرة بالفشل .

وفى مكيدة أخرى حاولوا أن يَسْحروه[٢] ﷺ ، ولكن كشف الله أمرهم وخيَّب سَعْيهم .. إذن : فأىّ وسيلة من وسائل دَحْض هذه الدعوة لم تنجحوا فيها ، ونصره الله عليكم ؛ كما قال تعالى :

---

(١) حاق به الشيء : نزل به وأصابه وأحاط به . [القاموس القويم ١/١٨١] .

(٢) عن عائشة رضى الله عنها قالت « سُحِر النبى ﷺ حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله ، سحره لبيد بن الأعصم فى مشط ومشاقة وجف طلعة ذكر فى بئر ذروان . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢٦٨) وأحمد فى مسنده (٦/٥٠ ، ٩٦) .

﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي .. (٢١) ﴾ [المجادلة]

وقوله تعالى :

﴿ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ .. (٤٥) ﴾ [النحل]

الخَسْف : هو تغييب الأرض ما على ظهرها .. فانخسفَ الشيء أيْ : غاب في باطن الأرض ، ومنه خُسوف القمر أي : غياب ضَوْئه .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى عن قارون :

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ .. (٨١) ﴾ [القصص]

وهذا نوع من العذاب الذي جاء على صُور متعددة كما ذكرها القرآن الكريم :

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا .. (٤٠) ﴾ [العنكبوت]

هذه ألوان من العذاب الذي حاقَ بالمكذبين ، وكان يجب على هؤلاء أن يأخذوا من سابقيهم عبرة وعظة ، وأنْ يحتاطوا أن يحدث لهم كما حدث لسابقيهم .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٤٥) ﴾ [النحل]

والمراد أنهم إذا احتاطوا لمكْر الله وللعذاب الواقع بهم ، أتاهم الله من وجهة لا يشعرون بها ، ولم تخطُر لهم على بال ، وطالما لم تخطُرْ لهم على بال ، إذن : فلم يحتاطوا لها ، فيكون أخْذهم يسيراً ، كما قال تعالى :

﴿ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا .. (٢) ﴾ [الحشر]

ويتابع الحق سبحانه ، فيقول :

﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ[1] (٤٦) ﴾

التـقلُّب : الانتـقال من حـال إلى حـال ، أو من مكان إلى مكان ، والانتقال من مكان الإقامة إلى مكان آخـر دليلُ القوة والمقدرة ، حيث ينتـقل الإنسان من مكانه حـامـلاً متـاعه وعـتَاده وجـميع مـا يملك ؛ لينشيء له حركةً حياة جديدة في مكانه الجديد .

إذن : التقلُّب في الحـياة مظهر من مظاهر القوة ، بحـيث يستطيع أن يقيم حياة جديدة ، ويحفظ ماله في رحلة تقلُّبه .. ولا شكَّ أن هذا مظهر من مظاهر العزة والجاه والثراء لا يقوم به إلا القوى .

ولذلك نرى في قول الحق تبارك وتعالى عن أهل سبأ :

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا[2] فِيهَا السَّـيْـرَ سِـيـرُوا فِـيـهَـا لَيَـالِيَ وَأَيَّامًـا آمِنِينَ (١٨) فَـقَـالُوا رَبَّنَا بَاعِـدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا .. (١٩) ﴾ [سبأ]

فهـؤلاء قوم جـمع الله لهم ألواناً شتى من النعـيم ، وأمَّن بلادهم وأسفارهم ، وجعل لهم محطات للراحة أثناء سفرهم ، ولكنهم وللعجب طلبوا من الله أن يُبـاعد بين أسفـارهم ، كأنهم أرادوا أنْ يتمـيزوا عن

---

(١) أي : ليسوا ببعيدين عن الله ولن يفلتوا من عقابه سبحانه .

(٢) قدر كل شيء ومقداره : مقياسه . وقـدر الشيء قدّره : قاسه . [لسـان العرب ـ مادة : قـدر] . قال ابن كـثير في تفسـيره (٣/٥٣٣) : « أي : جـعلناها بحـسب مـا يحتـاج المسافرون إليه » .

الضعفاء غير القادرين على مشقة السفر والترحال ، فقالوا :

﴿ باعِدْ بَيْنَ أسْفَارِنَا .. ﴿١٩﴾ ﴾ [سبأ]

حتى لا يقدر الضعفاء منهم على خَوْض هذه المسافات .

إذن : الذى يتقلّب فى الأرض دليل على أن له من الحال حال إقامة وحال ظَعْن[1] وقدرة على أن ينقل ما لديه ليقيم به في مكان آخر ؛ ولذلك قالوا : المال فى الغربة وطن .. ومَنْ كان قادراً يفعل ما يريد .

والحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ :

﴿ لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ ﴿١٩٦﴾ ﴾ [آل عمران]

فلا يخيفنك انتقالهم بين رحلتى الشتاء والصَّيْف ، فالله تعالى قادر أن يأخذَهم فى تقلُّبهم .

وقد يُراد تقلُّبهم فى الأفكار والمكْر السيء بالرسول ﷺ وصحابته كما فى قوله تعالى :

﴿ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [التوبة]

فقد قعدوا يُخطِّطون ويمكُرون ويُدبِّرون للقضاء على الدعوة فى مَهْدها .

ويقول تعالى :

﴿ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [النحل]

المعجز : هو الذى لا يمكّنك من أنْ تغلبه ، وهؤلاء لن يُعجزوا الله

(١) الظعن : السير والترحال .

تعالى ، ولن يستطيعوا الإفلاتَ من عذابه ؛ لأنهم مهما بيَّتوا فتبييتهم وكَيْدهم عند الله .. أما كيْد الله إذا أراد أنْ يكيد لهم فلن يشعروا به :

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ .. (٣٠) ﴾ [الأنفال]

وقال :

﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا (١٧) ﴾ [الطارق]

فمَنْ لا يستطيع أن يغلبك يخضع لك ، وما دام يخضع لك يسيطر عليه المنهج الذى جئْتَ به .

وقد يكون العجز أمام القوىّ دليلَ قوة ، كما عجز العرب أمام تحدِّى القرآن لهم ، فكان عجزهم أمام كتاب الله دليلَ قوتهم فى المجال الذى تحدَّاهم القرآن فيه ؛ لأن الله تعالى حين يتحدَّى وحين يُنازل لا ينازل الضعيف ، لا بل ينازل القوى فى مجال هذا التحدِّى .

﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٤٧) ﴾

التخوُّف : هو الفزع من شىء لم يحدث بعد ، فيذهب فيه الخيال مذاهبَ شتَّى ، ويتوقع الإنسان ألواناً متعددة من الشر ، فى حين أن الواقع يحدث على وجه واحد .

هَبْ أنك فى انتظار حبيب تأخَّر عن موعد وصوله ، فيذهب بك الخيال والاحتمال إلى أمور كثيرة .. يا تُرى حدث كذا أو حدث كذا ، وكل خيال من هذه الخيالات له أثر ولذعة فى النفس ، وبذلك تكثر المخاوف ، أما إن انتظرتَ لتعرفَ الواقع فإنْ كان هناك فزع كان مرة واحدة .

ولذلك يقولون في الأمثال : (نزول البلا ولا انتظاره) ذلك لأنه إنْ نزل سينزل بلون واحد ، أما انتظاره فيُشيع في النفس ألواناً متعددة من الفزع والخوف .. إذن : التخوُّف أشدُّ وأعظم من وقوع الحَدث نفسه .

وكان هذا الفزع يعترى الكفار إذا ما علموا أن رسول الله ﷺ بعث سرية من السَّرايا ، فيتوقع كل جماعة منهم أنها تقصدهم ، وبذلك يُشيع الله الفزع في نفوسهم جميعاً ، في حين أنها خرجتْ لناحية معينة[1] .

وبعض المفسرين قال : التخوُّف يعنى التنقُّص بأنْ ينقص الله من رُقْعة الكفر بدخول القبائل في الإسلام قبيلةً بعد أخرى ، فكلٌّ واحدة منها تنقص من رقعة الكفر .. كما جاء في قوله تعالى :

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ .. (١٥٥) ﴾ [البقرة]

ثم يقول الحق تبارك وتعالى في تذييل هذه الآية :

﴿ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٤٧) ﴾ [النحل]

وهل هذا التذييل مناسب للآية وما قبلها من التهديد والوعيد ؟ فالعقل يقول : إن التذييل المناسب لها : إن ربكم لشديد العقاب مثلاً .

لكن يجب هنا أنْ نعلمَ أن هذا هو عطاء الربوبية الذى يشمل العباد جميعاً مؤمنهم وكافرهم ، فالله تعالى استدعى الجميع للدنيا ، وتكفّل للجميع بما يحفظ حياتهم من شمس وهواء وأرض وسماء ،

---

(١) أخرج البخارى في صحيحه (٣٣٥ ، ٤٣٨) ، وكذا مسلم في صحيحه (٥٢١) كتاب المساجد من حديث جابر بن عبدالله رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلى » وفيه « ونصرت بالرعب بين يدى مسيرة شهر » .

لم تُخلَق هذه الأشياء لواحد دون الآخر ، وقد قال تعالى :

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠)﴾ [الشورى]

وكأن في الآيـة لَوْنًا من ألوان رحمـته سـبحانه بـخَلْقه وحـرْصه سبـحانه على نجـاتهم ؛ لأنه يُنبِّهـهم إلى ما يمكن أن يـحدث لهم إذا أصرُّوا على كـفرهم ، ويُبـصِّرهم بعاقـبة كفـرهم ، والتبـصرة عِظَة ، والعِظَة رأفة بهم ورحمة حتى لا ينالهم هذا التهديد وهذا الوعيد .

ومثـال هذا التذييل كثيـر في سورة الرحمن ، يقـول الحق تبارك وتعالى :

﴿رَبُّ الْمَـشْـرِقَـيْنِ وَرَبُّ الْمَـغْـرِبَيْنِ (١٧) فَـبِـأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَـا تُكَذِّبَانِ (١٨)﴾ [الرحمن]

فهذه نعمة ناسبت قوله تعالى :

﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨)﴾ [الرحمن]

وكذلك في قوله تعالى :

﴿مَرَجَ[1] الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ[2] لاَّ يَبْغِيَانِ (٢٠)﴾ [الرحمن]

فهذه نعمة من نعم الله ناسبت تذييل الآية :

﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١)﴾ [الرحمن]

---

(١) مرج : خلط البحر الملح والبحر العذب . ومـعنى لا يبغيان أي : لا يبغي الملح على العذب فيختلطان . [لسان العرب ـ مادة : مرج] .

(٢) البرزخ : هو الحـاجز من الأرض لئلا يبغي هذا عـلى هذا وهذا على هذا فيفسـد كل واحد منهما الآخر ويزيله عن صفته التي هي مقصودة منه . [تفسير ابن كثير ٤/٢٧٢] .

أما فى قوله تعالى :

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ (٢٧) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨) ﴾ [الرحمن]

فما النعمة فى ﴿ كل مَنْ عليها فانٍ ﴾ ؟ هل الموت نعمة ؟!

نعم ، يكون الموت نعمة من نِعَم الله على عباده ؛ لأنه يقول للمحسن : سيأتى الموت لتلقَى جزاء إحسانك وثواب عملك ، ويقول أيضاً للكافر : انتبه واحذر .. الموت قادم ، كأنه سبحانه يُوقظ الكفار ويَعظهم لينتهوا عما هم فيه .. أليست هذه نعمة من نعم الله ورحمة منه سبحانه بعباده ؟

وكذلك انظر إلى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ[1] مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) ﴾ [الرحمن]

فأىّ نعمة فى :

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ .. (٣٥) ﴾ [الرحمن]

أىُّ نعمة فى هذا العذاب ؟

نعم المتدبِّر لهذه الآية يجد فيها نعمة عظيمة ؛ لأن فيها تهديداً ووعيداً بالعذاب إذا استمروا على ما هُم فيه من الكفر .. ففى طيّاتها تحذير وحِرْص على نجاتهم كما تتوغد ولدك : إذا أهملتَ دروسك

(١) الشواظ : اللهب الذى لا دخان فيه . [لسان العرب ـ مادة : شوظ] .

ستفشل وافعل بك كذا وكذا . وأنت ما قلت ذلك إلا لحرصك على نجاحه وفلاحه .

إذن : فتذييل الآية بقوله :

﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٤٧)﴾ [النحل]

تذييل مناسب لما قبلها من التهديد والوعيد ، وفيها بيان لرحمة الله التى يدعو إليها كلاً من المؤمن والكافر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ(1) ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ (٤٨)﴾

قوله تعالى :

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ .. (٤٨)﴾ [النحل]

المعنى : أعمُوا ولم يَرَوْا ولم يتدبروا فيما خلق الله ؟

﴿مِن شَىْءٍ .. (٤٨)﴾ [النحل]

كلمة شىء يسمونها جنس الأجناس ، و ﴿ مِنْ ﴾ تفيد ابتداء ما يُقال له شىء ، أى : أتفه شىء موجود ، وهذا يسمونه أدنى الأجناس .. وتفيد أيضاً العموم فيكون :

﴿مِن شَىْءٍ .. (٤٨)﴾ [النحل]

أى : كل شىء .

---

(١) تفيأ فيه : تظلل ، وتفيؤ الظلال : رجوعها بعد انتصاف النهار وابتعاث الأشياء ظلالها . [لسان العرب ـ مادة : فيأ].

فانظر إلى أىّ شىء فى الوجود مهما كان هذا الشىء تافهاً ستجد له ظلاً :

﴿يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ .. ﴿٤٨﴾﴾ [النحل]

يتفيأ : من فاءَ أى : رجع ، والمراد عودة الظل مرة أخرى إلىٰ الشمس ، أو عودة الشمس إلى الظل .

فلو نظرنا إلى الظل نجده على نوعين : ظل ثابت مستمر ، وظل مُتغيِّر ، فالظل الثابت دائماً فى الأماكن التى لا تصل إليها أشعة الشمس ، كقاع البحار وباطن الأرض ، فهذا ظلٌّ ثابت لا تأتيه أشعة الشمس فى أى وقت من الأوقات .

والظلّ المتحرك الذى يُسمَّى الفَىْء لأنه يعود من الظل إلى الشمس ، أو من الشمس إلى الظل ، إذن : لا يُسمَّى الظل فَيْئاً إلا إذا كان يرجع إلى ما كان عليه .

ولكن .. كيف يتكوّن الظل ؟ يتكوّن الظل إذا ما استعرض الشمسَ جسم كثيف يحجب شعاع الشمس ، فيكون ظلاً له فى الناحية المقابلة للشمس ، هذا الظل له طُولان وله استواء واحد .

طول عند الشروق إلى أنْ يبلغَ المغرب ، ثم يأخذ فى التناقص مع ارتفاع الشمس ، فإذا ما استوتْ الشمس فى السماء يصبح ظلّ الشىء فى نفسه ، وهذه حالة الاستواء ، ثم تميل الشمس إلى الغروب ، وينعكس طول الظلّ الأول من ناحية المغرب إلى ناحية المشرق .

ويلفتنا الحق تبارك وتعالى إلى هذه الآية الكونية فى قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (٤٦) ﴾ [الفرقان]

ذلك لأنك لو نظرتَ إلى الظلّ وكيف يمتدُّ ، وكيف ينقبض وينحسر لوجدتَ شيئاً عجيباً حقاً .. ذلك لأنك تلاحظ الظل فى الحالتين يسير سَيْراً انسيابياً .

ما معنى : (انسيابى) ؟ هو نوع من أنواع الحركة ، فالحركة إما حركة انسيابية ، أو حركة عن توالى سكونات بين الحركات .

وهذه الأخيرة نلاحظها فى حركة عقارب الساعة ، وهى أوضح فى عقرب الثوانى منها فى عقرب الدقائق ، ولا تكاد تشعر بها فى عقرب الساعات .. فلو لاحظت عقرب الثوانى لوجدتَه يسير عن طريق قفزات منتظمة ، تكون حركة فسكوناً فحركة ، وهكذا ..

ومعنى ذلك أنه يجمع الحركة فى حال سكونه ، ثم ينطلق بها ، وبذلك تمرُّ عليه لحظة لم يكن مُتحركاً فيها ، وهذا ما نسميه بالحركة القفزية .. هذه الحركة لا تستطيع رَصْدها فى عقرب الساعات ؛ لأن القفزة فيه دقيقة لدرجة أن العين المجردة تعجز عن رَصْدها وملاحظتها ، هذه هى الحركة القفزية .

أما الحركة الانسيابية ، فتعنى أن كل جزء من الزمن فيه جزء من الحركة .. أى : حركة مستمرة ومُوزَّعة بانتظام على الزمن .

ونضرب لذلك مثلاً بنمو الطفل .. الطفل الوليد ينمو باستمرار ، لكن أمه لملازمتها له لا تلاحظ هذا النمو ؛ لأن نظرها عليه دائماً .. فكيف تكون حركة النمو فى الطفل ؟ هل حركة قفزية يتجمع فيها نمو الطفل كل أسبوع أو كل شهر مثلاً ، ثم ينمو طَفْرة واحدة ؟

لو كان نموه هكذا لَلاَحظنا نمو الطفل ، لكنه ليس كذلك ، بل ينمو بحركة انسيابية تُوزّع المِلّى الواحد من النمو على طول الزمن ، فلا نكاد نشعر بنموه .

وهكذا حركة الشمس حركة انسيابية ، بحيث تُوزع جزئيات الحركة على جُزئيات الزمن ، فالشمس ليست مركونة إلى ميكانيكا تتحرك عن التروس كالساعة مثلاً ، لا .. بل مركونة إلى أمر الله ، موصولة بكُنْ الدائمة .

وكأن الحق تبارك وتعالى يريد أن يلفتَ خَلْقه إلى ظاهرة كونية فى الوجود مُحسَّة ، يدركها كلٌّ منّا فى ذاته ، وفيما يرى من المرائى ، ومن هذه المظاهر ظاهرة الظلّ التى يعجز الإنسان عن إدراك حركته .

وفى آية أخرى يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴿١٥﴾ ﴾ [الرعد]

فالحق سبحانه يريد أن يُعمم الفكرة التسبيحية فى الكون كله ، كما قال تعالى :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء]

فكل ما يُطلَق عليه شيء فهو يُسبِّح مهما كان صغيراً .

وقوله تعالى :

﴿ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ .. (٤٨) ﴾ [النحل]

لنا هنا وقفة مع الأداء القرآني ، حيث أتى باليمين مُفْرداً ، في حين أتى بالشمائل على صورة الجمع ؛ ذلك لأن الحق تبارك وتعالى لما قال :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ .. (٤٨) ﴾ [النحل]

أتى بأقلّ ما يُتصوَّر من مخلوقاته سبحانه ﴿ مِنْ شَيْءٍ ﴾ وهو مفرد ، ثم قال سبحانه :

﴿ ظِلالُهُ .. (٤٨) ﴾ [النحل]

بصيغة الجمع . أي : مجموع هذه الأشياء ، فالإنسان لا يتفيأ ظلّ شيء واحد ، لا .. بل ظلّ أشياء متعددة .

و ﴿ مِنْ ﴾ هنا أفادت العموم :

﴿ مِن شَيْءٍ .. (٤٨) ﴾ [النحل]

أي : كل شيء . فليناسب المفرد جاء باليمين ، وليناسب الجمع جاء بالشمائل .

ثم يقول تعالى :

﴿ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٤٨) ﴾ [النحل]

فما العلاقة بين حركة الظلّ وبين السجود ؟

معنى : سُجّداً أي : خضوعاً لله ، وكأن حركة الظل وامتداده على امتداد الزمن دليلٌ على أنه موصول بالمحرك الأعلى له ، والقائل

الأعلى لـ « كُنْ » ، والظل آية من آياته سبحانه مُسخَّرة له ساجدة خاضعة لقوله : كُنْ فيكون .

وقلنا : إن هناك فرقاً بين الشيء تُعده إعداداً كونياً ، والشيء تُعده إعداداً قدرياً .. فصانع القنبلة الزمنية يُعدُّها لأنْ تنفجرَ فى الزمن الذى يريده ، وليس الأمر كذلك فى إعداد الكون .

الكون أعدّه الله إعداداً قدرياً قائماً على قوله كُنْ ، وفى انتظار لهذا الأمر الإلهى باستمرار (كن فيكون) . وهكذا .. فليست المسألة مضبوطة ميكانيكياً ، لا .. بل مضبوطة قَدرياً .

لذلك يحلو لبعض الناس أن يقول : باقٍ للشمس كذا من السنين ثم ينتهى ضوؤها ، ويُرتّب على هذا الحكمَ أشياء أخرى .. نقول : لا .. ليس الأمر كذلك .. فالشمس خاضعة للإعداد القدرىّ منضبطةٌ به ومنتظرة لـ « كُنْ » التى يُصغى لها الكون كله ؛ ولذلك يقول تعالى :

﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) ﴾ [الرحمن]

هكذا بيَّنت الآية الكريمة أن كل ما يُقال له « شىء » يسجد لله عز وجل ، وكلمة « شىء » جاءت مُفْردة دالّة على العموم .. وقد عرفنا السجود فيما كلَّفنا الله به من ركن فى الصلاة ، وهو مُنْتَهى الخضوع ، خضوع الذات من العابد للمعبود ، فنحن نخضع واقفين ، ونخضع راكعين ، ونخضع قاعدين ، ولكن أتمّ الخضوع يكون بأنْ نسجدَ لله .. ولماذا كان أتمّ الخضوع أن نسجدَ لله ؟

نقول : لأن الإنسان له ذات عامة ، وفى هذه الذات سيد للذات ، بحيث إذا أُطلق انصرف إلى الذات ، والمراد به الوجه ؛ لذلك حينما يعبِّر الحق تبارك وتعالى عن فَنَاء الوجود يقول :